أسلوب التفكير فى الأزهر

ومنزلته من تطور الفكر البشرى

بقلم الاستاذ أحمد توفيق عياد

المدرس بالليسه فرانسيه

رأينا فى المقال السابق (١) كيف انحط الفكر الانسانى وفقد كماله بعد « أرسطو » حيث ضاع استقلال اليونان السياسى ، وضعف فيها الروح الفلسفى ، بعد سيادة مقدونيا عليها ، وحكم الرومان لها .

واستعرضنا ـ فى شىء من الإيجاز ـ المدارس التى تأثر بها الفكر منذ ذلك العهد : الرواقيين والأبيقوريين والشكاك ، ووقفنا عند « الأفلاطونية الحديثة » وهى الخطوة التى أعقبت ذلك ، وهى التى عملت كثيراً فى تكييف الفكر العربى وتشكيله ، وكانت أغلب هذه التعاليم الأفلاطونية ـ بعد أن عملت فيها الشيعة وحاولت تطبيقها على دعوتهم ـ تدرس بالأزهر أيام الفاطميين ، وقد استمد « إخوان الصفا » تعاليمهم منها.

والعامل فى ظهور هذه الفلسفة الجديدة ، أن النصرانية لما جاءت فى ذلك العهد لجأت إلى الفلسفة اليونانية لتستعين بها على الجدل ولتؤيد تعاليمها وعقائدها أمام الوثنيين أولا ، ثم أمام المسلمين أخيراً ، وكان من جراء هذا أن امتزج الدين بالفلسفة وظهرت « الأفلاطونية الحديثة » بعيدة عن فلسفة اليونان ، حتى إن بعض المؤرخين يعدونها من فلسفة القرون الوسطى ؛ لأن طابعها مصبوغ بصبغة الإلهام الشرقى ، وكانت الأسكندرية هى مركز هذا المزج بين الديانة النصرانية والتفكير اليونانى ؛ والحاصل أن المذاهب : الرواقى والأبيقورى والشكى ، تحجرت حتى جاءتها الفلسفة الجديدة بعد ثلاثة قرون أو أربعة ؛ وفى بحر هذه المدة ظهر بالأسكندرية عالم يهودى كبير هو « فيلون » درس الفلسفة اليونانية ، والديانة اليهودية ، وآمن بالاثنين معاً ، وكان يؤمن بالوحى وفق ما جاءت به التوراة ، ويؤمن بالفلسفة وفق ما جاء به الفلاسفة ، بل كان له رأى واضح فى أن الاثنين معاً يكونان ما فى العالم من حق ، وذهب إلى أكثر من هذا فقرر أن المنبع للاثنين واحد ، وأن الفلسفة اليونانية مأخوذة من طريق الديانة اليهودية ، وأن أرسطو وأفلاطون أخذا فلسفتهما

(١) نشر فى العدد الماضى من « المرشد » .

عن طريق موسى؛ والغزالى يرى هذا الرأى ايضاً ويقول: إن تعاليم الفلاسفة منبعها النبوات. وسعى (فيلون) فى التوفيق بين الدين والفلسفة ، وهو اول شخص مسئول عن خلطهما ؛ وعلى هذا النحو جرى فلاسفة الإسلام والفلاسفة العصريون .

فى الاسكندرية إذاً تمت عملية المزج هذه ، وكان من نتيجة ذلك ظهور روح جديد أسس على مبدءين متناقضين ممتزجين : أحدهما الشك والنقد ، والاخر سرعة التصديق ؛ وتقابلت آراء الشرقيين والغربيين اليونانيين ،فامتزج روح اليونان بروح المشارقة ، فأنتجا عقائد ونظماً دينية متأثرة بتأمل الأولين وإلهام الآخرين : مما لليونان من علم ، وما للمشارقة من أساطير ؛ ثم جاء الروح اليونانى بما له من ذكاء ودقة وقدرة على الشرح المبين ، فأصابته شرارة من الشرق أشعلته وأحيته ؛ كذلك أخرج الروح الشرقى ـ الذى من خصائصه الطموح إلى ما وراء عالم الشهادة ـ نظماً ملتئماً ، ونظريات مرتبة ، لم يكن يخرجها لولا مساعدة العلم اليونانى ، فانه رتب مأثور الشرقيين ، وحل من عقدة لسانهم ، فاستخرجوا العقائد الدينية ، والنظم الفلسفية التى بلغت الذروة فى مذاهب : الغنوسطية ، والأفلاطونية الحديثة، ويهودية (فيلون) ، ومذهب الاشراك الذى ينسب إلى (يوليان الصابى) .

إن الشرق بما له من ميل إلى الغيب وخوارق العادات،وما فى طبيعته من تصوف وتدين؛ واليونان بما له من خصب دقيق ، وبحث عميق ، وإن شئت فقل : إن ما للأول من شعور ، وما للثانى من تحليل منطقى،قد امتزجا ونتج منهما فكر خاص انتشر فى الاسكندرية فى القرون الأولى للميلاد ؛ وقد صبغ ذلك الفكر بصبغتين مختلفتين:صبغة الكاملين والصوفيين،وصبغة أهل البحث العلمى ؛ ولذا امتاز هذا العصر بميل الفلسفة إلى الدين ، وميل الدين إلى الفلسفة .

ومؤسس هذا المذهب الجديد (أمنيوس سكاس) وهو أول المعلمين الأسكندريين الذين حاولوا التوفيق بين تعاليم أفلاطون وأرسطو ؛ ولذلك كانت معلوماتنا عنه قليلة، ويعد تلميذه (أفلوطين) منظم هذا المذهب ، وإليه ينسب ؛ ولد فى (لوكوبوليس) ـ أسيوط الآن ـ وتعلم بالاسكندرية ، ولازم أستاذه إحدى عشرة سنة ، والتحق بحملة سارت لغزو فارس ليتعلم علوم الفرس والهند،ثم سافر إلى روما سنة ٢٥٤م،وأسس بها مدرسة للفلسفة ؛ والعرب تطلق على مذهبه « مذهب الاسكندرانيين » ، وتسميه « الشيخ اليونانى » ؛ وهو يقول : إن هذا العالم كثير الظواهر ، دائم التغير ، وهو لم يوجد بنفسه ، بل لا بد لوجوده من علة سابقة عليه هى السبب فى وجوده ، وهذا الذى صدر عنه العالم واحد غير متعدد لا تدركه

المعقول ، ولا تصل إلى كنهه الأفكار ، لا يحده حد ، وهو أزلى أبدى ، قائم بنفسه فوق المادة وفوق الروح وفوق العالم الروحانى ، خلق الخلق ، ولم يحل فيما خلق ، بل ظل قائماً بنفسه ، مسيطراً على خلقه ، ليس ذاتاً وليس صفة ، هو الارادة المطلقة ،ولا يخرج شيء عن إرادته ، هو علة العلل ولا علة له ، وهو فى كل مكان ولا مكان له .

كيف نشأ عنه العالم ؟ وكيف صدر هذا العالم المركب المتغير عن البسيط الذى لايلحقه التغير ؟ أكان هذا العالم موجوداً ثم وجد ؟ فهل يمكن أن يصدر عن الخالق ذلك من غير أن يحصل تغير فى ذاته ؟ كيف يصدر هذا العالم الفانى من الله غير الفانى ؟ هل صدر هذا العالم من الصانع عن روية وتفكير أم من غير روية ؟ ولم وجد الشر فى العالم ؟ ما النفس ؟ وأين كانت قبل حلولها بالبدن ؟ وأين تكون بعد فراقه ؟ .

ويقول : إن المادة سبب الشرور ، وغاية الانسان أن يتحرر من ربقة المادة ، ويجب على الإنسان ألا يخضع لهذه المادة ، ولذلك خطوات : أولى هذه الخطوات التحرر من سيطرة الجسم والحواس ، ولا يكون الإنسان عبداً ذليلا لها ، فإذا وصل إلى هذا فقد تحلى بالفضائل العالية ، وأن يحرر عقله بالفكر والتفلسف ، وأن يتحرر فى النهاية من الفكر والتفلسف ، وذلك هو العلم اللدنى ، وهو الكشف الآنى لا عن طريق المنطق ، إنما عن طريق الالهام والغيبوبة والوجد ؛ وهكذا يستمر الانسان حتى يذوب فى الله . . . . وهذا كلام الصوفية بعينه ، والحقيقة أن التصوف الاسلامى دخله شيء كثير من هذا المذهب .

وبعد الأفلاطونية الحديثة لم يظهر فى أوربا تفكير مجدد ، وتولاها على العموم عصر مظلم ليس فيه مجال للبحث والتفكير العميق ، إلى أن أنشأ (شرلمان) مدارس تتابع الرجوع إلى الفلسفة اليونانية ، ولهذه تنسب تسمية هذا العصر بالمدرسى (Scholastic) ، وأكثر هذه المدارس كان تابعاً للكنائس أو الأديرة ، فلذلك كانت مصبوغة بالصبغة الدينية ، والمشتغلون فيها كانوا دينيين ؟

أحمد توفيق عياد

المعرفة فى تونس

تطلب « المعرفة » فى تونس من المكتبة العلمية لصاحبيها ووكيلينا : السيد محمد الأمين والسيد طاهر ، بنهج الكتبية رقم ١٢ .

وتطلب أيضاً من مكتبة الاستقامة لصاحبها السيد محمد بن الحاج صالح التميمى .